البعد الميثالوجي في أعمال الفنان الفلسطيني مصطفى

عصمت الأسعد (*)

- إن قضيت الإثراء الفكري للعمل التشكيلي يأتي من خلال الكثير من الروافد بصرية كانت أم ذهنية.

فهذه العلاقة تصبح ذات مدلولات أكبر وأوسع من مجرد كونها علاقات مرئية تجيء في غالبها وفق حاضر العمل أو وجوده لذلك يصعب على المتلقي الخوض الآني لإجراءات عملية تفيد في احتماليات التذوق التشكيلي والذي هو هدف عند الفنان وعند الرائي على حد سواء.
فحاضر العمل إذن لا يفيدنا إلا بصرياً أي بما يُعنى بذلك الشعور "الموسيقى بصرية" التي يرسلها العمل التشكيلي وما يتركه على ذائقة المتذوق من استرخاءات جمالية تعمل عملها للهدوء النفسي أو قل ما تمنحنا إياها من مساحات بصرية تثري أعيننا عندما يتساقط بصرنا على مساحات التشكيل المقترحة من قبل الفنان. وعلى ذلك فإننا لا نستطيع هجران المضامين الفكرية اللازمة في عملية تذوقية ناجحة نجريها ونحن نتأمل أعمال واحد ممن أبحروا كثيراً في مجالات الفكر والمتعلقة بشكل خاص (بالميثالوجي) واستحضار كل ذلك لصناعة عمل تشكيلي ذو أبعاد أكثر

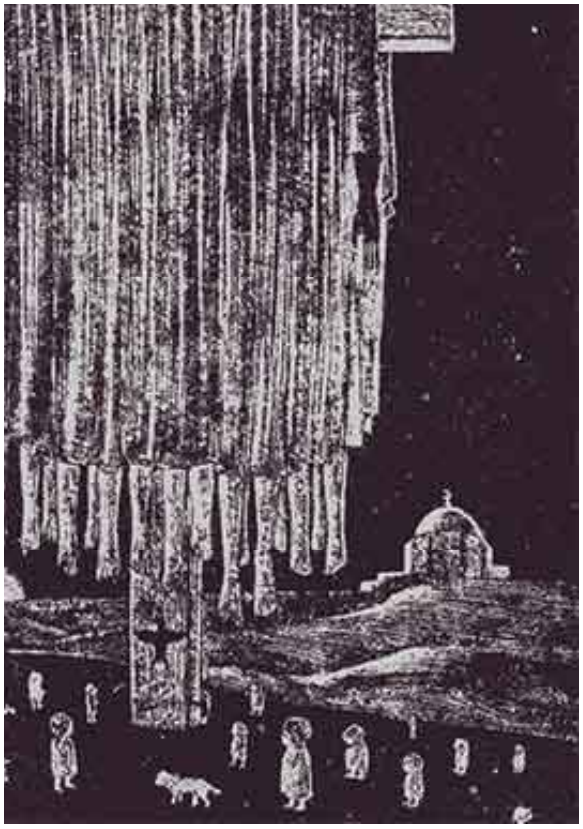

ديمومة على صعيد منح الذائقة "زمانية رؤى" وهذه بالطبع تنطبق على عمل الفنان ذاته وعلى عين المتذوق أيضاً لاشتراكهما في متتاليات موسيقية تذوقية وإن كانت بصرية في ظاهرها وفكرية في محتواها. فالتعامل الأسطوري أو الميثالوجي عند الفنان مصطفى الحلاج قد صاغ لنا رؤى تختلف كثيراً عما هو مألوف تقليدياً من تعامل مع مفردات استرجاعية تراثية أو تاريخية وإن كانت هذه موغلة في عمق الحضارات الشرقية القديمة (فرعونية كانت أو مابين النهرين) تلك إذن إحدى سياقات التعاطي الميثالوجي عند الحلاج ونتيجة لذلك كله نشهد ونحن نعانق أعمال الحلاج بصرياً بأننا أمام مدركات يومية نعرفها جيداً ومعتقدات نحياها يوماً بعد يوم ، فترميزاته المتعلقة بنموذج الرمز والمأخوذ ميثالوجياً أو حتى وإن كانت ذات صلات عقائديه دينية كرموز الصليب الذي يجيء متوالداً في إحدى لوحاته تماماً كما أشجار الصبار في بلاده. هذه الفكرة التشكيلية تمنحنا أبعادها الأسطورية إذن ، وإن غلب عليها الأداء التشكيلي وتولداته البصرية التي تأذن لنا بالولوج أكثر نحو تشخيصات الحلاج ونحو تشكلاته الخرافية المستقاة من عمق حضارات يوليها انتمائه بكل اعتزاز. فالترميزات المتعلقة بالمخلوقات الحيوانية والتي تآخي وبشكل أسطوري ايضاً العلاقة الحميمة ما بين الأنسان (الميثالوجي) وما بين تلك التعاطيات . لم يكتفي الحلاج بكل هذه الطروحات التشكيلية، إلا أنه يُصر اصراراً عجيباً على توثيق الروابط الحضارية ما بين علاقة الإنسان الميثالوجي وما بين إنسان الألفية الثالثة مقترحاً بذلك رؤاه الخاصة لإمكانية طروحات تُعنى بفكرة تقلصات الزمان – تقلصات زمن أينشتاين – إن هي إلا نقلة بصرية ممتدة تبلغ من العمر ما يقارب الأسطورة ذاتها. هي علاقات أسمى من أن تكون على مُستوى المُشاهد فقط وإنما هي على مستوى العيش والممارسة.

إذن ليست تعاملات متحفية يكتفي الحلاج بعرضها على مشاهديها وبما تحويه من غبار الزمن بل هي دعوة للانغماس بمياه الأسطورة والتحمم بموتيفاتها وأشكالها. فعبر تناولاته المتعلقة بالمساحات والخطوط وما بينهما من علائق البناء التشكيلي قد نلمس ذلك طبعاً بدون عناء. كون تشكيلاته في حقيقتها لا تبتعد عن الحس والشعور الإنسان الذي ينتمي بكل تأكيد إلى هذه الشريحة الشرقية من البشر وتعاملاتها العقائدية والمنبثقة عن استعدادات كانت يومها ديناميكية متحركة ومؤثرة على المستوى الإنساني. ولم تتوقف يوماً واحداً عن إشعاعاتها البصرية ولا عن عمقها الفكري والذي ينساق بدوره لاتجاهات الأدب القديم سومرياً

كان أو فرعونياً أو سوريا (أوغاريت) أو لحضارات المسيح أو حتى إسلامياً فيما بعد. فالحلاج وفّق ترميزاته الميثالوجية تلك يصوغ لنا خارطة زمانية وما على المشاهد إلا أن يضع مواقعها الحدسية والشعورية ووفق المقترح الثقافي لدى المشاهد ومن ثم انعكاسات كل ذلك على عملية يشوبها الكثير من الجدة لتلائم جدّة طروحات الحلاج نفسها. وتلائم أيضاً أبحاثه الاركيولوجية على صعيد الفكر والذي بدوره قد غذّا كما رأينا مقترحاته آنفة الذكر. ولكن للإمتدادات الزمانية مقترحاتها أيضاً وخاصة عند فنان كمصطفى الحلاّج المرتكن إلى مرجعيات سحيقة زمانياً والهدف هنا كما هو مؤكد ملائمة سواد الحاضر المعاش وتناصاته القديمة. والهدف أيضاً عملية إبراق يقوم بها الفنان للإبانة عن عمق المعاناة لإنسان الحاضر خاصة إنسانه العربي وإنسانه الفلسطيني بشكل خاص. هذا الإنسان الذي عانى وما زال من حالات فقد الوطن وحالات أخرى من الارتحال والهجرة. فالمشكلة عند الحلاج لم تقف عند حدود الحلول التشكيلية وإنما هي أعمق بكثير . فأدواته وبالرغم من بساطتها وبرغم من ما تحتاجه من تقنيات عالية من النواحي التنفيذية فإنه استطاع وبكل ما أوتي من مقدرة على التعبير عن كل تلك المعطيات السالفة. وإن كانت في معظمها عبارة عن تداعيات تلازم الفنان فكرا وممارسة. فالمشهد في مساحات الحلاج التشكيلية تتنامى بصرياً وذلك للإفصاح عن حيثيات البعد التشكيلي الذي بدوره يقوم مقام عمليات اخبارية (زمانياً) وهنا أؤكد ذلك الذي سبق وإن قلناه عن تقلصات اينشاتيان الزمانية. فلا مهرب إذن من كون هذ الفنان قد أرضعنا من العمق الميثالوجي ما يجعلنا قادرين على التعاطي التشكيلي معه. شريطة أن يكون لدينا قدرات خاصة على المقاومة (صراع بقاء تشكيلياً) فالنهج اللوني عنده جاء أيضاً وفق تداخلات الأداء الجرافيكي المبتدئ من الأبيض والأسود حتى حدود آخر تدرجات الطيف وإن كانت تعاملات الحلاج هنا لم تأتي عبر ترميزات لونية بحد ذاتها ولكن للخطوط والتضاريس المكونة للشكل عند دلالاتها. هذه الدلالات تخص رحلاته الفنية المبكرة أو قل مرحلة الدراسة المتخصة في مجالات التعامل النحتي. هنا الحلاج يقف في مرحلة (الما بين) – تشكيلياً – أعني هنا ما بين أداءات الصورة المرسومة وما بين التشكيل المنحوت. لا يزال هنا الفنان وعند هذه المسافة يقف على شفا التعامل الميثالوجي، وكيف لا كما تشهد الفنان عبر رموزه، أن هناك سكنى خاصة عنده لموتيفات الحضارات الشرقية النقدية، إن كانت عبر منحو جدارياتها أو بردياتها كما عند الحضارة النيلية في مصر. ما علاقة كل ذلك إذن بما اقترحناه على تسميته (تقلد رافقت أعمال مصطفى الحلاج حتى آخر أعماله (ارتجالات الحياة) . ولمصطلح ارتجالات هنا ينم عن مرحلة بينية مليئة بعمق الفكر وعمق المقترح إلى مرحلة مليئة بالارتجالات وما يحمله المصطلح من إمكانية تعبيرية مباش

الفنان للتعبير عما يجول بذائقته وعن ما يجول بثقافته للدلالة على حالات يعيشها هو وإنسانه العربي والفلسطي
المرة وهو مرتكز على أبعاد أكثر حرفية في التعامل التشكيلي أن كان ذلك على مستوى بناء العمل أو على م
القصصي عنده. فالسردية هنا ذات دلالات خاصة أيضاً. فعمله ارتجالات الحياة من الناحية الفيزيائية هو عبارة عن
من الحجم الكثير (144 متر طولاً 36سم عرضاً) كل هذه المبالغة والصيغة التضخمية هي احتياجات الضر
القصصية. فالفنان عنده الكثير ليقوله، هذه التضخمية ألا توازيها ضخامة الميثولوجيا نفسها وضخامة الأسطورة
فالجو ما زال أركيلوجيا إذن علينا أن نتتبع أكثر مجريات التعاطي التشكيلي عند مصطفى الحلاج كي نعي
ومساحاته والسعي أكثر نحو الارتكازات الثافية التي ارتكن لها الفنان لاستكمال بنياته الترميزية اللازمة لأي
يمارسها المتذوق. فالإحالة هنا تأتي وفق التعاطي الأسطوري أيضاً ليس أكثر وليس وفق اجتهادات ميتة تؤدي بن
في متاهات المعنى، فالارتجالات لا تحتم علينا أن نقف وقفات إقليديسية – نسبة إلى نظريات إقليدس – أو وقفات
نسبة إلى فيثاغورس أيضاً – تجاه أعمال الحلاج التشكيلية. هي دعوى لإماطة اللثام عن المرتكز التعبيري ون
أوتي المتذوق من أدوات. فهي علاقة حميمة أكثر من كونها علاقة باردة. فالتوازن اللوني الأكثر برودة في
(الجرافيك) لا تعني بأي حال من الأحوال أية دلالات تسوقنا نحو ترميزات بصرية فقط ولكن لماذا لا تكون ذات دلا
تلمس برودة الماضي السحيق ذلك المتسع الأركيولوجي الذي أحاطنا به مصطفى الحلاج كي نشاركه تجربة ذا
نوع خاص. تجربة لها دلالاتها ايضاً وتجربة لها آلامها تشبه آلام ذلك الفلسطيني المهاجر الذي كان قد ترك من
أحبها. رغم ذلك لم يُسمعنا الحلاج صيحات تشكيلية صارخة إنما هي كانت دائماً ممتزجة بحكمة يصوغها
وخطوط وهذه الحكمة مستقاة أيضاً من معطيات بُعد (الأسطرة) ذاته ذلك الذي عرفه الحلاج معرفة تفي للا
التشكيلية لصيقة بالبعد الفكري لديه ولصيقه بعده الثقافي. هذا المزيج وما يحمله من أنماط أدائية لم تعيقه أبداً
فالحلاج دائماً كان يعي هذه الرؤية عنده والتي تجيء في غالبها عبر تداعيات وعبر الارتجالات السالف ذكرها. و
لدينا أي معاكسة إدراكية أو معاكسة تذوقية وإن لم يزعجه ذلك طبعاً. فكون الاحتمالات أكبر والاجتهادات أوسع فق
هنا أبعاداً أكثر لتعاطيه الميثولوجي وأعني هنا خصوصاً تزاوجات المفرد الحديث والحاضر – مفردات التراث الفل
خاص – وتناميه بشكل ذاتي وتلقائي مع إزاحات أكثر ديمومة وأكثر رسوخاً وأكثر توثيقية وأعني بها مرتكزا
العربية القديمة وإن كانت هذه هي حقيقتها تجيئ من خلال تفسيرات بسيطة نستنتجها عند قراءة طبيعة الد
الصهيوني والإبانة عن الأحقية في احتواء عنصر المكان. ولإثبات ذلك نرى الحلاج قد غاص بنا مرة أخرى زم
رحلاته المتعددة نحو أركولوجيا المنطقة وما تتضمنه من رموز تشبهنا نحن ونحن فقط. وتنزع عن الآخر أي
مشابهة. الصياغات إذن أتت وفق رؤاه التشكيلية ذاتها فنحن نلمسها بسهولة ويسر فالسحنات البشرية عنده را
وسورية والوقفات في غالبها تأتي وفق المعطيات الجمالية الفرعونية. بعد ذلك نرى صيغات المشهد الممتلئ برم
رموز خاصة مصاغة وفق رؤية الفنان وذلك لزوميات الخلق الفني والتي تنفي عنه صفة الناقل أو صفة التشبيهي
تأتي على مستوى الإبداع التشكيلي. وهذه الصياغة هي التي تجعل من فنان كالحلاج يقف على قمة العطاء
وليكون بذلك أحد الذين يرسلونا نحن كمتذوقين لمسافات أبعد لأمكنة لم نصلها قبلاً لنتلمس ذواتنا بأكثر من
واقعنا غير مكتفين بالتماعات الألفية الثالثة وإن كانت دعواته هذه تستلزم انزياحنا نحو ذواتنا أكثر ونحو تد
المعاش الذي يلفحنا نحو مواجهة أكثر شمولية من كونها مواجهة تشكيلية كل ما يستدعي اهتمامنا نحوها ذلك
في وعي المشاهد أو المتذوق لمثل هذه الأعمال ومدى مقدرتنا على صياغتها واحتوائها. كل ذلك كي نكون مع مد
عبر تناميات أشكاله ونحو تعاطيه أكثر من كونه تاريخي ولكن كونه تعامل يسوقنا للبحث في اتجاهات العمق التر
اسطوري وآثاري وبكل ما يحمل ذلك البعد من مفردات حيوانية وإنسانية أو حتى ترميزات خاصة بالاستعمالات الي
من رسوم المطرزات أو حتى ترسيمات الوشم وغيرها من مقترحات الواقع العربي الفلسطيني وتوقيعها ضمن
التشكيلي للإبانة عن أهمية ولادة معطي تشكيلي مؤصل عربياً وغير مهاجر نحو اقتراحات الآخر علينا، وذل
الإصرار من قبل الفنان على زج العدد الكبير من الرموز داخل العمل الواحد وإبراز روافد المقترح التشكيلي
بصرياً بتفريعاته الخاصة نحو تعامله الخاماتي الذي هو في حقيقته يأتي جرافيكياً في أكثر حالاته. وهذا من وجه
كما تجيء هذه التفريعات زمانياً كما أسلفنا من خلال مسافة ميثولوجية نسافر فيها مع الحلاج ليستوقفنا جنباً إ
أنفسنا الغائرة في عمق "تقلص زماني" نعانية وفي عمق سكنى خاصة يمنحني إياها تشكيلياً نقف قبالتها منـ
اجلالاً وإكباراً لمساحة مضيئة منحنا إياها الحلاج حباً وطواعيه تماماً مثلما أسلم روحه لالتفاحات نيران ع

**الخاص يومها أصرّ الحلاج إلا أن يكون صورة الأسطورة ذاتها وتلك التي عاشها فنا، أما هذه المرة فالحلاج ي
يموتها في حمى تقلص زماني انتاب ارتجالاته التشكيلية تلك.**

)8	**ناقد وفنان تشكيلي - فلسطين (*)**

جمبع الحقوق الفنية والأدبية محفوظة للفنان والناقد التشكيلي حميد خزعل 2000-2008 ©

WWW.ALTSHKEELY.COM